الفصل التاسع

كشف الكذب في التسعينيّات

بدأت هذا الكتاب بوصف اللقاء الأول الذي جرى في عام 1938 بين أدولف هتلر مستشار ألمانيا النّازيّة، ونيفيل تشامبرلين رئيس الوزراء البريطاني. وقد اخترت هذه الحادثة؛ لأنها تُعـدّ أحد أكثر اللقاءات ضرراً عبر التاريخ، وتحتوي درساً مهمّاً بشأن نجاح الأكاذيب. تذكّر أنّ هتلـر أمر الجيش الألماني بالتعبئة لمهاجمـة تشيكوسلوفاكيا سرّاً، ولكن الإعداد يتطلب بضعـة أسابيـع؛ ليكون الجيش مستعـدّاً تماماً للهجوم. أخفى هتلر رغبتـه في الاستفادة من الهجـوم المباغت، وأخبر تشامبرلين بدلاً من ذلك أنّه على استعداد للعيش بسلام إذا وافق التشيكيون على مطالبه بشأن إعادة رسم الحدود بين البلدين. صدّق تشامبرلين كذبة هتلر، وحاول إقناع التشيكيين بعدم تعبئة جيشهم لرؤيته وجود فرصة سانحة لتحقيق السلام.

إلـى حدٍّ ما، كان تشامبرلين ضحيـة مستعدة أرادت أن تُضلَّـل. وإلا كان عليه مواجهة فشل سياسته بالكامل تجاه ألمانيا، وتعريض سلامة بلده للخطر. والدرس المُستفاد من هذه الحادثـة هـو أنّ بعض الضحايـا يتعاونون من غير إدراك منهم في أنهم قـد ضُلّلوا. عندها، تتوقـف الأحـكام النقدية، ويُتغاضـى عن المعلومـات المتناقضة؛ لأن معرفـة الحقيقة أكثر إيلاماً، على الأقل على المدى القصير، مقارنة بتصديق الكذب.

أعتقـد أنّ هذا الدرس ينطبق على كثير مـن الأكاذيب الأخرى، وليس الأكاذيب بين رؤساء الدول فقط. والآن، وبعد مرور سبع سنوات منذ كتابة هذا الكتاب، أخشى أنّ الاجتماع

بين هتلر وتشامبرلين قد يدلّ على درسين آخرين غير صحيحين بشأن الكذب، وقد يبدو أنه لـو لـم يشأ تشامبرلين أن يُضلَّل لفشلت كذبة هتلر. يشيـر البحث منذ نشر النسخة الأصلية مـن كتاب قول الأكاذيـب عام 1985م، إلى أنّ وينستون تشرشـل منافس تشامبرلين، والذي حـذره من هتلر، ربما لن يكون قادراً على كشف كذبـة هتلر. ولو جلب تشامبرلين خبراء في كشـف الكذب من شرطة سكوتلاند يارد، أو المخابرات البريطانية فلن يستطيعوا هم أيضاً أن يقوموا بأفضل مما فعل.

يشـرح هذا الفصـل النتائج التي توصلنا إليها من خلال بحثنـا الجديد، والتي قادتني إلـى هذه الاستنتاجات الجديـدة. فقد وصفت ما تعلمناه عمن يمكنـه كشف الكذب، وبعض الأدلـة الجديدة لكيفية اكتشاف الأكاذيـب، وسأضيف إلى ذلك بعض النصائح التي تعلمتها عـن كيفية تطبيق البحث التجريبي على الأكاذيب في الحيـاة الواقعية، اعتماداً على خبرتي فـي السنـوات الخمس الماضية التـي أمضيتها في تعليم الذين يتعاملـون يوميّاً مع أشخاص مشتبه بكذبهم.

لأنّ هتلـر شرّيـرٌ جدّاً، فقد يـدل هذا المثال أيضـاً على أنّ من الخطـأ دوماً أن يكذب الزعيم الوطني، وهذه نتيجة بسيطة جدّاً. يستكشف الفصل اللاحق المواقف التي يكون فيها الكذب مقبولاً في الحياة العامة، من خلال عدد من الأحداث المشهورة في التاريخ السياسي الأمريكـي الحديث. مثلاً، لنأخـذ ادعاءات الرئيس السابق لينـدون جونسون المزيفة حيال نجاحـات الجيش الأمريكي في حرب فيتنـام، وكذلك قرارات ناسا لإطـلاق مكّوك الفضاء تشالنجـر، في حين، كان هناك خطرٌ كبيرٌ يشير إلى إمكانية انفجاره، وسأثير مسألة ما إذا كانـت هذه الحالات حالات خداع الذات، فإن كانـت كذلك، فهل يجب أن يُحمَّل الذين كذبوا مسؤولية تصرفاتهم؟

من باستطاعته كشف الكاذبين؟

عندمـا دوّنـت كتـاب (**قـول الأكاذيـب**)، اعتقدت أنّ نمـط الكذب الذي كنـت أدرسه؛ الخدع المتخـذة لإخفاء العاطفة القوية الصادقة في لحظة الكذب– يرتبط ارتباطاً بسيطاً بالأكاذيـب التي يلفّقها الدبلوماسيون، أو السياسيون، أو المجرمون، أو الجواسيس. وخشيت

أن يكـون مكتشفـو الكذب المحترفون فـي الشرطة، وعملاء وكالة الاستخبـارات المركزية، وعلمـاء الأمراض النفسية والعقلية الذين يعملون مع الحكومة مفرطي التفاؤل بقدرتهم على معرفـة كـذب أحد ما من القرائـن السلوكيـة. وأردت تحذير أولئك الذيـن تتطلّب أعمالهم إصـدار أحـكام عن الكذب والصـدق بالتقليل من الثقـة بالقدرة على اكتشـاف الخداع من القرائـن السلوكيـة. أو ما يسميه نظام العدالة الجنائية بالسلـوك، وأردت تنبيههم أن يكونوا أقلّ ثقة بقدراتهم الخاصة على رصد الكاذب.

والآن، هنـاك أدلة قويّة علـى أنّني كنت محقّاً في تحذير مكتشفـي الكذب المحترفين ليكونـوا أكثر تنبّهـا لقدراتهم، ولكني وجدت أيضـاً أنني ربما أكون قد بالغـت في التّحذير. ولدهشتـي وجـدت أنّ بعضـ محترفي كشـف الكذب يجيـدون رصد الأكاذيب مـن القرائن السلوكية، فتعلمت منهم سبب قدرتهم على ذلك. ولدي الآن سبب للاعتقاد أنّ ما تعلمته عن الأكاذيب يمكن أن ينطبق على بعض الأكاذيب في سياقات السياسة، أو الإجرام، أو مكافحة التجسس.

وربما لم يكن بإمكاني معرفة هذا لو أنني لم أكن قد انتهيت من كتابة (قول الأكاذيب). فأستاذ علم النفس الذي يجري بحوثاً تجريبية مخبريّة حول الكذب والعاطفة لا يلتقي عادة مـع الأشخاصـ الذين يعملون في نظام العدالـة الجنائية، أو عالـم الجاسوسية، أو مكافحة التجسس. لقد سمع محترفو كشف الكذب عنّي، ولكن ليس من خلال منشوراتي العلمية التي ظهرت على مدى ثلاثين سنة، بل من خلال التفسيرات الإعلامية لعملي الذي تزامن مع نشر كتاب قول الأكاذيب.

وسرعـان مـا دعيت لتقديم حلقـة عمل لقضاة المـدن، والولايـات، والدولة، ومحامي الادعـاء، والشرطـة، وفَنّيي اختبار جهـاز كشف الكـذب (البوليغراف) لمكتـب التحقيقات الاتحـاديّ، ووكالـة المخابرات، ودائرة الخدمـات السرية في الولايـات المتحدة، والجيش، والبحرية، والقوات الجوية الأمريكية. لا يُعدّ الكذب موضوعاً أكاديميّاً عند هؤلاء الأشخاص. فهم ينظرون إلى وظائفهم، وما يجب علي قوله بجدية مطلقة. فهم ليسوا طلاباً يقبلون كلام الأستـاذ؛ لأنـه من يمنحهم علامات. وإن كانـت هناك علّة تشعر بها هـذه المجموعات فإن ذلـك سيكون؛ بسبب مؤهلاتي الدراسية. إنهم يطلبون أمثلـة واقعيّة، وأن أتحدى خبراتهم،

وأواجـه تحدياتهم، وأعطيهم ما يستطيعون استخدامه في اليـوم التالي. ربما أُبلغهم بمدى صعوبة رصد الكاذب، ولكن عليهم الإدلاء بتلك الأحكام غداً، ولا يستطيعون انتظار مزيد من البحـوث، فهم يريـدون أيّ مساعدة ممكنة مني أكثر من مجرد تحذيرهم في أن يكونوا أكثر حيطة وتنبّهاً، ولكنهم متشككون جدّاً، ومنتقدون على الدّوام.

ولكـن مـن الغريب أنهم كانـوا أكثر مرونة مما وجـدت عند الأكاديميين، وكانوا أكثر استعـداداً للتفكير في تغيير إدارتهم لأعمالهم أكثر من معظم لجان المناهج الجامعية؛ فقد سألنـي أحـد القضاة في استراحة الغداء ما إذا وجب عليه إعـادة ترتيب قاعة المحكمة كي يتمكـن مـن رؤية وجه الشاهد بدلاً من رؤية خلف رأسه. لـم تخطر هذه الفكرة البسيطة في ذهنـي مسبقـاً. ومنذ ذاك، كنت أقدم هذا الاقتراح عندما أتحـدث مع القضاة، فأعاد كثير منهم ترتيب قاعات المحاكم التي يديرونها.

أبلغنـي عميـل في الخدمة السّرّيّـة مدى صعوبة معرفة مـا إذا كان أحدهم يكذب عند تهديده الرئيس عندما يقول: إنّ التهديد لم يكن جادّاً، وقد قال ما قال لينال إعجاب صديق فقـط. لقـد كانت هناك نظرة رهيبة على وجه العميل عندمـا روى كيف أنهم قرروا أنّ سارة جيـن كانت «مخبولـة» وليست قاتلـة حقيقية، وأطلقـوا سراحها مخطئين قبـل ساعات من إطلاقهـا النار على الرئيس جيرالد فورد في الثانـي والعشرين من أيلول 1975. قلت للعميل إنّ حلقـة العمل التي يمكن أن أقدمها لهم تعطيهـم أضافة بسيطة، وربما لا تضيف أكثر من 1% لمستوى الدقة لديهم. فقال: عظيم، لنقم بذلك.

طالمـا بـدأتُ وزميلي مورين و. سوليفـان حلقة العمل التي نقدمهـا باختبار موجز عن مـدى معرفة المشاركين للكذب من خـلال السلوك، يبين اختبار كشف الكذب عشر طالبات تمريضـ كنّ جزءاً من التجربة التي وصفتها في الفصل الثاني (الصفحات 55–52)، أبدت كلّ واحدة منهنّ مشاعر سارّة في أثناء مشاهدة فيلم يعرض مناظر طبيعية وحيوانات أليفة؛ خمس منهنّ صادقات، والخمس الأخريات كاذبات؛ إذ، كانت الكاذبات في الحقيقة يشاهدن أفلام جراحية مروّعة، ولكنهـن حاولن إخفاء مشاعر الضيق لديهن، وإقناع الشخص الذي يقابلهنّ بأنهن يشاهدن أفلاماً ممتعة.

هناك سببان لإعطاء اختبار كشف الكذب. لم استطع تفويت الفرصة لمعرفة مدى دقة الأشخاص الذين يتعاملون مع الخدع الأكثر فتكاً برصد أحدهم عندما يكذب، وكنت أيضاً مقتنعاً أنّ التقدم لاختبار كشف الكذب سيكون افتتاحية جيدة؛ سيواجه الجمهور مباشرة مدى صعوبة معرفة وقت كذب أحدهم، وقد أغريتهم بالقول: ستحصلون على فرصة فريدة لمعرفة حقيقة قدراتكم على كشف الكذب، فأنتم تقومون بمثل هذه الأحكام كلّ الوقت، ولكن كم على وجه اليقين تجدون أنّ أحكامكم صحيحة أم لا؟ هذه فرصتكم، ففي خمس عشرة دقيقة ستعرفون الإجابة. بعد التقدم للاختبار مباشرة، كنت أعطي الإجابات الصحيحة، ثم أطلب إليهم رفع أيديهم إذا حصلوا على عشر إجابات صحيحة أو تسع وهكذا، ودونت النتائج على السبورة كي يستطيعوا تقييم أدائهم الخاص مقارنة بمجموعتهم.

وعلى الرغم من أنّ ذلك لم يكن هدفي، فإنّني عرفت أنّ هذا الإجراء كشف عن مدى قدرة كلّ شخص منهم. لقد توقعت ألّا يكون تحصيل معظمهم جيداً في الاختبار، وجعلتهم يتعلمون أنّ ذلك الدرس يناسب مهمتي؛ لجعلهم أكثر حذراً بشأن معرفتهم متى يكذب شخص ما. خلال حلقات العمل الأولى القليلة، خشيت أن يعترض (طلابي)، ولا يرغبون بالمخاطرة بالانكشاف علنا إذا تبين أنهم غير قادرين على رصد الكاذبين، وعندما عرفوا تدنّي تحصيل معظمهم، توقعت أن يتحدوا ويشككوا بمصداقية الاختبار، ومناقشتي أنّ الأكاذيب التي بينتها لم تكن مرتبطة بالأكاذيب التي تعاملوا معها، ولكن ذلك لم يحدث مطلقاً. فقد كان الموظفون من كلا الجنسين من مجموعات العدالة الجنائية، والمخابرات، مستعدين لكشف قدراتهم على كشف الكذب على الملأ وأمام زملائهم. لقد كانوا أكثر شجاعة مقارنة بزملائي الأكاديميين عندما عرضت عليهم الفرصة نفسها لتعلم مدى قدرتهم على كشف الكذب أمام زملائهم وطلابهم.

دفعت معرفة مكتشفي الكذب المحترفين مدى تدنّي أدائهم إلى التخلي عن قواعد الإبهام المسلم بها، والتي يعتمد عليها معظمهم. وأصبحوا أكثر حذراً حيال الحكم على الخداع من السلوك. كما حذرتهم أيضاً من كثير من الصور النمطية لدى الناس حول معرفة متى يكذب أحدهم؛ مثل فكرة أنّ الأشخاص الذين يتململون أو يشيحون بأبصارهم بعيداً عندما يتحدثون كاذبون دائماً.

وفـي الجانـب الأكثر إيجابية، أظهـرت لهم كيفية استخدام قائمـة التحقق من الكذب الـواردة في الفصل الثامن (ص. 241) على بعض أمثلـة الحياة الواقعية، وأكّدت كثيرا، كما فعلـت في الفصول السابقة، علـى كيفية كشف العاطفة للكذب، وكيفيـة رصد علامات هذه العاطفـة. وأريتهم عشرات الصور عن تعابير الوجه بإيجاز، بجزء من المئة من الثانية، كي يتعلموا رصد تعابير الوجه الدقيقة بسهولة.

واستخدمـت أمثلـة مصـورة بأشرطـة الفيديو لأكاذيـب مختلفة يستطيعـون ممارسة مهاراتهـم المتعلمة حديثاً عليها. في شهـر سبتمبر 1991، نُشِرَ ما توصلنا إليه عن محترفي الكشف عن الكذب[2]. وتبين أنّ مجموعة مهنية واحدة أحرزت نتيجة تفوق المصادفة، وهي مجموعة الخدمة السرية للولايات المتحدة. فقد سجل أكثر من نصف أعضائها تقريباً نسبة 70% أو أكثر في مستوى الدقة، ووصل الثلث تقريباً نسبة 80% أو أكثر، على الرغم من أنني لا أستطيـع أن أكـون متأكداً من إجادة أفراد الخدمة السريـة مقارنة بالمجموعات الأخرى، ولكنـي أراهـن أنّ سبب ذلك قيام كثير منهم بمهمّات الحمايـة ومراقبة الحشود لأيّ علامة على شخص ما قد تشكل خطراً للشخص الذي يقومون بحمايته، وذلك النوع من اليقظة من شأنه أن يكوِّن إعداداً جيداً لرصد القرائن السلوكية الخفية على الخداع.

مـن المدهش لكثيـر من الأشخاص عندما يعلمـون أنّ المجموعـات المهنية الأخرى جميعهـا المهتمـة بالكذب لا يسجلون نتائج تفـوق المصادفة؛ كالقضـاة، ومحامي الادعاء، ورجـال الشرطة، وفنِّيي مكشـاف الكذب الذين يعملون لدى وكالـة الاستخبارات المركزية، أو مكتـب التحقيقـات الاتحاديّ، أو وكالـة الأمن القومـي، والخدمات العسكريـة، والأطباء النفسيين الذين يقومون بأعمال الطب الشرعي، والمدهش بالمثل أنّ كثيراً منهم لم يعرفوا أنهـم غير قادرين على كشف الخداع من السلوك، وكانت إجاباتهم عن السؤال الذي وجّهناه إليهـم قبـل خضوعهم للاختبار عمّا يتوقعـون الحصول عليه من نتائج لـم يكن مرتبطاً بما حصلوا عليه لاحقاً. كما كانت إجاباتهم عن السؤال نفسه الذي وجّهناه مباشرة بعد انتهائهم من الاختبار.

وقـد فوجئـت لكون أيٍّ من مكتشفي الكـذب المحترفين سيكون دقيقـاً للغاية في رصد الأكاذيـب؛ لأنّ أحـداً منهـم لم يحصـل على خبرة سابقـة بأيّ وضع خاص ولا بخصائص

الكاذبيــن الذين واجهوهم. وقد صممت الحالة الواضحة في شريط الفيديو كتقريب لمحنة المريضــة في مستشفى الأمراض العقلية التي تخفي خططهــا للانتحار، ومحاولتها التّهرّب من الإشراف الطبي كي تنتحر.

كان ينبغي لها إخفاء ألمها، والتصرف بطريقة مقنعة كما لو أنها لم تعد مكتئبة. (انظر المناقشــة فــي الصفحــات (17 ،16 و 56–54). لقد حجبــت المريضة عاطفــة قوية سلبية شعرت بها بتلك اللحظة بقشرة من عاطفة إيجابية. الأطباء النفسيون، وعلماء النفس فقط هــم الذين لديهم خبرة بتلك الحالة، ولم تسجّــل مجموعتهم نتائج تفوق المصادفة. فلماذا كانت نتائج الخدمات السرية للولايات المتحدة مميزة في رصد هذا النوع من الخداع؟*

فــي البداية، لم يكن الأمر واضحاً في ذهني. ولكن تفكيري في النتائج أوحى لي بفكرة جديدة عــن إمكان الكشف عن الخداع من القرائن السلوكية. ولا يحتاج مكتشف الكذب إلى معرفــة ذلك القدر عن المشتبه به، أو الحالة إذا استثيرت عاطفة قوية. فإذا بدا شخص ما خائفاً، أو مذنباً، أو متحمساً، مع عدم توافق هذه التعابير مع ما يصدر عنه من حديث، فهذا دليــلٌ على أنّه يكذب، وعندما يكون هنــاك كثير من اضطرابات الكلام (كالوقفات وUmhh وغيرها)، وليس هناك سبب لوجوب معرفة المشتبه به لما يقوله، فهو لا يتكلم بهذه الطريقة عــادة، فإنّ المرجّح أن يكــون المشتبه به كاذباً، وتكون القرائــن السلوكية على الخداع أكثر تشتّتــا عندمــا لا تُستثار العواطف، فإذا كان الكاذب لا يخفــي عاطفة قوية، فذلك يتطلب أن يكون المحقّق أكثر دراية بتفاصيل الكذبة وخصائص الكاذب.

وكلّما كانت الأخطار عالية، تكون هناك فرصة أن يسمح الخوف من الكشف أو التحدي للتغلب على مكتشف الكذب (أو ما أسميه لذة الخداع، ص. 76) إجراء كشف دقيق عن الكذب من غير الحاجة إلى أن يكون لدى مكتشف الكذب كثير من تفاصيل الكذبة أو المشتبه به.

ولكن، لن تجعل الأخطار المرتفعة الكاذبين جميعهم يشعرون بالخوف من الانكشاف؛ وهــذه الملحوظــة على قــدر كبير من الأهميــة. فلن يخــاف المجرمون ممن لهــم خبرة في

* لربما أجادت المجموعات المهنية لو أننا أعطيناهم كذبة ليحكموا عليها بالحالة التي يتعاملون معها عادة، ولربما نكون قد عرفنا من هم مكتشفو الكذب الجيدون بصرف النظر عن الألفة الظرفية وليس من مكتشفو الكذب الجيّدون الذين يعملون في بيئاتهم المعتادة، وأعتقد أن الأمر ليس كذلك ولا يمكن استبعاد هذه الاحتمالية إلا بالمزيد من البحث.

الإفـلات منها، ولا زيـر النساء الذي نجح مرات عدّة في إخفاء علاقاتـه الغرامية السابقة، ولا المفاوضـ المتمرس. وقد تجعـل الأكاذيب عالية الخطورة بعضـ المشتبه بهم الأبرياء، الذين يخشون عدم تصديقهم، يبدون كاذبين (انظر النقاش بشأن خطأ أوثلّو في الصفحات 170–173).

إذا تشـارك الكاذب مـع المتلقّي في القيم واحترمه، فهنـاك فرصة لأن يشعر الكاذب بالذنب بشأن فِعلته، وستظهر علامات السلوك بسبب هذا الذنب، وستُكشف الكذبة أو تُحفِّز الـكاذب على الاعتـراف. ولكن ينبغي أن يتجنـب مكتشف الكذب الغـرور بنفسه، وافتراض الاحترام الذي لا يستحقه. وعلى الأم غير الواثقة، أو شديدة الانتقاد، امتلاك معرفة ذاتية؛ لتـدرك امتلاكها لهذه الخصائص. وعليـه، يجب ألّا تفترض أنّ ابنتها ستشعر بالذنب حيال الكـذب عليها. وعلى ربّ العمل أن يعلم أنه بنظر موظفيه غير منصف، ولا يستطيع الاعتماد على علامات الذنب لكشف خداعهم.

ليسـ مـن الحكمة الثقة بأحـكام أحدهم بشأن كذب شخص ما مـن غير وجود معرفة عن المشتبه به أو الحالة، ولم يقدم اختبار كشف الكذب الذي قدمته الفرصة للتآلف مع كلّ شخصـ يُراد الحكـم عليه، وينبغي بناء القرارات عمن كان كاذباً ومن كان صادقاً على رؤية الشخصـ مرة واحدة، وبعدم وجود معلومات أخرى عنـه. وفي ظلّ هذه الظروف، تمتّع عدد قليل جدّاً من الأشخاص بالدقة، ولم تكن الدقة مستحيلة، بل صعبة لمعظم الأشخاص. لاحقاً سأفسر كيف أنّ الأشخاص الدقيقين تمكنوا من الحكم الصائب بتوافر قليل من المعلومات. لدينـا نسخة أخرى من الاختبار تبين مثالين لـكلّ شخص. وعندما يستطيع مكتشف الكذب مقارنـة سلـوك الشخص في حالتيـن يكون أكثر دقة، على الرغم مـن أنه حتى عندها سجل معظمهم نتائج أكثر بقليل من المصادفة[3].

ينبغـي أن تساعد قائمة التحقـق من الكذب الواردة في الفصـل الثامن على تقدير ما إذا كانت الأكاذيب عالية الخطورة، وتمتلك قرائن سلوكية. وينبغي أن تساعد على تحديد ما إذا سيكـون هناك خوف من الانكشاف، أو ذنب الخـداع، أو لذة الخداع. وينبغي ألّا يفترض مكتشف الكذب ببساطة أنّ هناك احتمالاً دائماً لكشف الخداع من القرائن السلوكية. ينبغي

أن يقــاوم مكتشــف الكذب توهّم قدرته على معرفة الكاذب مــن الصادق من خلال المبالغة بقدرته الخاصة على رصد الكذب.

علــى الرّغــم من أنّ مجموعة الخدمــة السرية كانت الوحيدة التــي سجلت نتيجة تفوق المصادفــة، سجّــل بعضــ أفراد المجموعــات الأخرى نتائــج مرتفعة أيضاً، ومــا زلت أتابع البحــث لمعرفــة سبب دقة بعض الأشخاصــ فقط في كشف الخداع، وكيــف تعلموها. ولم لا يعرف الجميع رصد الكذب بدقة. فهل هذه مهارة يمكن تعلّمها أم أنّها موهبة؟ وشيء إما أن تمتلكه أو لا تمتلكه؟ لقد واتتني هذه الفكرة الغريبة عندما وجدت أنّ ابنتي ذات الأحد عشر عامــاً سجلت دقّــة كما سجّل أفضل عملاء الخدمة السرية، وهــي لم تقرأ كتبي ولا مقالاتي، ربمــا لا تكــون ابنتي مميزة، وربما يكــون معظم الأطفال أفضل من الكبــار في رصد الكذب، وسنبدأ البحث لمعرفة ذلك.

تأتــي معلومات الإجابة عن السؤال حــول سبب دقة بعض الأشخاص بصفتهم مكتشفي كــذب ممــا كتبه الأشخاص الذين تقدموا للاختبار عندمــا سألناهم عن قرائن الخداع التي استخدموهــا للحكــم بشأن مــا إذا كان الشخص كاذباً. وبمقارنــة الأشخاص الذين اتسموا بالدقــة في المجموعــات جميعها، مع غير الدقيقيــن، وجدنا أنّ الدقيقيــن ذكروا استخدام معلومــات عن الوجه والصــوت والجسم، في حيــن، ذكر غير الدقيقين الكلمــات التي قيلت فقــط. تناسب هذه النتيجة ما ذكرته في الفصــول السابقة في كتاب (قول الأكاذيب)، ولكن لم يقرأ أيّ شخص من الذين تقدموا للاختبار هذا الكتاب من قبل.

عرف بعض الأشخاص الدقيقون أنّ من السهل إخفاء الكلمات مقارنة بإخفاء التعابير، أو الصوت، أو حركات الجسم. لكن لا يعني ذلك أنّ الكلمات غير مهمة، فقد يكون التناقض فيمــا يقال مهمّاً جدّاً، وربما يكــون التحليل المتطور للحديث كاشفاً للكذب[4]، ولكن لا ينبغي التشّديد على محتوى الحديث فقط؛ إذ ما زلنا في حاجة إلى معرفة سبب عدم ربط الكلمات مع تعابير الوجه والصوت.

نتائج جديدة في قرائن الكذب السّلوكيّة

تجسّـد البحوث التي استكملناها في العامين الماضييـن، وتضيف إلى ما يذكره كتاب **الأكاذيب** أهميةَ الصوت والوجه في الكشف عن الخداع. وبقياس تعابير الوجه المعروضة في الأشرطة التسجيلية لطالبات التمريض عندما كنّ يقلْنَ الصدق ويكذبْن، وجدنا اختلافات في نوعين من الابتسامات. وعندما كنّ مستمتعات حقّاً، أظهرن كثيراً من الابتسامات الصادقة (الصورة A5 في الفصل الخامس)، وعندما كُنَّ يكذبْن أظهرنَ ما يسمى بابتسامات الإخفاء. (في إخفـاء الابتسامة إضافة إلى الشفتين المبتسمتين هناك علامات حزن (الصورة A3)، أو خوف (الصورة B3)، أو غضب (الصورة C3 أو 4)، أو اشمئزاز)[5].

لقـد دعمـت الفروق بيـن الابتسامـات بمزيد من الدراسـات على عينـات مختلفة من الأطفـال والبالغين في الولايـات المتحدة وخارجها، وفي ظروف مختلفة، وليس فقط عندما يكـذب الأشخاص. وقد وجدنا اختلافات فيمـا يحدث داخل الدماغ، ومـا يقول الأشخاص: إنهـم يشعرون به عندما يبـدون ابتسامة صادقة مقارنة مع أنـواع الابتسام الأخرى. ويكمن الدليل الأمثل فيما إذا كانت الابتسامة حقيقية في اشتراك العضلة التي تحيط بالعين وليس فقـط الشفاه المبتسمة[6]. ليس من السهل إيجادها بمجرد البحث كما توجد تجعيدات رِجْل الغراب على الزاويتين الخارجيتين للعينين؛ لأنّ ذلك لا ينجح دائماً.

إنّ تجاعيـد رِجْل الغراب علامة مفيـدة على الابتسامة الصادقـة إذا كانت الابتسامة بسيطـة والمتعة المشهـودة غير قوية. أمّا فـي الابتسامة الكبيرة أو الواسعـة، فإنّ الشفتين المبتسمتين تكوّنان تجاعيد رِجْل الغراب؛ لذا، عليك النظر إلى الحاجبين، فإذا كانت عضلة العيـن مشتركة؛ لأنّ الابتسامة صادقة فعلاً، فسيتحرك الحاجب نحو الأسفل حركة بسيطة. إنّ هذه القرينة صادقة، ووجدنا أنّها ممكنة الرصد من غير تدريب[7].

ووجدنـا أيضاً أنّ نبرة الصـوت أصبحت مرتفعة عندما كذبـت طالبات التمريض عن مشاعرهـن، ويدلّ هذا التغيير في نبرة الصوت على الانفعال العاطفي المتزايد، ولكنه ليس علامـة علـى الكذب. فإذا كانت إحداهـن تستمتع بمشهد مريح وسار فيجـب ألاّ ترتفع نبرة صوتهـا. لا يبدي الكاذبون جميعهم علامات فـي الوجه والصوت على خداعهم، وباستخدام

مصـدري المعلومات، تـمّ الحصول على أفضل النتائج ومعدل دقّـة تعادل 86%. ولكن ذلك يعنـي أنّ 14% من الأخطاء ارتُكبت فعليّـاً. وبالاعتماد على مقاييس الوجه والصوت اعتقدنا أنّ المفحوص صادق في حيـن كان كاذباً، أو كاذباً في حيـن كان صادقاً؛ لذا، وعلى الرغم مـن أنّ المقاييس فاعلة على الغالبية العظمى مـن الأشخاص، فإنّنا لا نستطيع التّعميم على الجميع، ولا أتوقع أبداً أن نحصل على مجموعة مقاييس سلوكية تنطبق على الأفراد جميعهم مـن غير استثناء؛ فبعض الأشخاص ممثلون بطبعهـم بحيث لن يُكتشفـوا، وبعضهم الآخر متميزون بحيث إنّ ما ينجح في كشف الأكاذيب لدى غيرهم يقف عاجزاً أمامهم.

لقد وجدت أنا والدكتور مارك فرانك في العمل القائم الدليل الأول الذي يدعم فكرتي التـي تشيـر إلى وجـود كاذبين جيدين وممثليـن طبيعيين، وأنّ هناك كاذبيـن لا يستطيعون خـداع الآخرين. لقـد طلبنا إلى بعض الأشخاص الكذب أو قـول الصدق في مشهدَي خداع؛ فـي المشهد الأول، ارتكبـوا جريمة وهميّة، وأخـذوا خمسين دولاراً مـن حقيبة ما، يمكنهم الاحتفـاظ بها في حال أقنعوا المحقق أنّهم يقولون الصـدق عندما ادعوا عدمَ أخذ النقود، وفـي المشهـد الثانـي، يمكن أن يكونـوا كاذبين أو صادقيـن في التعبير عـن آرائهم بقضية مهمـة مثل الإجهاض أو عقوبة الإعدام. وجد فرانك أنّ الذين كانوا كاذبين ونجحوا في أحد المشهدين نجحوا في الآخر، والذين كان كشفهم سهلاً عندما كذبوا وهم يعبرون عن آرائهم كانوا أسهل كشفاً عند الكذب بشأن جريمة السرقة أيضاً[8].

قد يبدو هذا واضحاً جدّاً، ولكن قد يشير كثير من منطق الفصول السابقة إلى أنّ هذا يعـود إلى تفاصيل الكذبة، وليست قدرة الشخص علـى تحديد نجاح كذبة معينة. ربما يكون العامـلان مهميـن؛ فبعض الأشخاص جيـدون أو سيئون في الكذب بحيـث لا يكون الوضع أو تفاصيـل الكذبة مهمّاً كثيراً؛ فهـم يفلتون باستمرار بكذبهم أو يفشلـون. وأنّ ما يحدّد مدى إجادتهم الكذب هو كلّ من: المتلقّي، وموضوع الكذب، ومستوى المخاطرة.

احتمالات رصد الأكاذيب في قاعة المحكمة

إنّ ما توصلتُ إليه في تعليم رجال الشرطة، والقضاة، والمحامين، على مدى السنوات الخمس الماضية يشير إلى ملاحظة بارعة أراعيها الآن في حلقات العمل، هي: لا بدّ أن يكون

نظام العدالة الجنائية قد صُمِّم من قِبَلِ شخص يريد أن يجعل اكتشاف الخداع في السلوك أمراً مستحيلاً؛ للمآخذ الآتية:

1. يُعطي المشتبه به المذنب كثيراً من الفرص للتحضير لإجاباته والتّدرّب عليها قبل تقييم صدقه من خلال هيئة المحلفين أو القاضي، وبذلك يزداد ثقته بنفسه، ويضعف خوفه من انكشاف أمره. إنّ هذا المأخذ يُسجّل ضد القاضي أو هيئة المحلّفين.
2. يُجرى الاختبار المباشر والاستجواب الدقيق للشاهد بعد شهور، إن لم يكن بعد سنوات من حدوث الحادثة؛ لذا، تُثبّط العواطف المرتبطة بالحدث الجنائي.
3. بسبب التأخّر مدّة طويلة قبل بدء المحاكمة، يكون لدى المشتبه به الفرصة لتكرار تفسيراته الزائفة مرات عدّة بحيث يبدأ بتصديق كذبته، وعندما يحدث ذلك لا يكون بمعنى ما كاذباً عند التقدم للشهادة.
4. عند تحديه في الاستجواب الدقيق، يكون الظّنين عادة مستعدّاً، إن لم يكن قد تدرّب من خلال محاميه على الإجابة بسهولة عن الأسئلة الموجّهة بنعم أو لا.
5. بالمقابل، هناك المتهم البريء الذي يأتي إلى المحاكمة مرعوباً من عدم تصديقه، ولم يجب على القاضي أو هيئة المحلفين تصديقه، إذا لم يصدقه كلٌّ من الشرطة، والمدعي العام، والقاضي، في تحركات ما قبل المحاكمة لردّ الدعوى.

إنّ مكتشفي الحقيقة، من قضاة وهيئة محلفين، يعتمدون كثيراً على السلوك، وهذا الأمر ليس كذلك للشخص الذي يقوم بالمقابلة أو الاستجواب الأولي. في العادة، يكون هؤلاء من الشرطة، أو في حالات الإساءة للطفل، الأخصائي الاجتماعي. أولئك هم الأشخاص الذين تتاح لهم أفضل فرصة لمعرفة ما إذا كان الشخص يكذب من القرائن السلوكية. لا تتاح للكاذب الفرصة للتدرب على كذبته عادة، ومن المرجح أن يكون خائفاً من انكشاف أمره، أو أنه يشعر بالذنب حيال الفعل الخاطئ الذي ارتكبه. وفي حين، قد يكون رجال الشرطة والمتخصصون الاجتماعيون طيِّبي السريرة، فإن معظمهم غير مدربين على توجيه الأسئلة الموضوعية غير الذّاتيّة، وغير النّمطيّة. لم يُدرّبوا على كيفية تقييم القرائن

السلوكيــة للصدق والكذب، وهم منحازون في افتراضاتهم النّمطيّة[9]، ويعتقدون أنّ الجميع مذنبــون وكاذبون تقريباً، وقد ينطبق ذلك على الغالبيــة العظمى ممن يستجوبونهم. عندما قدمــت اختبار كشف الكـذب أول مرة لضبــاط الشرطة، وجدت أنّ معظمهــم حكم على كلٍّ طالبــة تمريض رآها في شريط الفيديو أنّهــا كاذبة. «لا أحد يقول الحقيقة أبداً»، كما ذكروا لــي. لحسن الطالع، لا تتعرض هيئة المحلفين باستمــرار للمشتبه بهم الجنائيين، وعليه، لا يفترضون أن المشتبه به مذنب.

إشارات قائد الأسطول (الأدميرال) بويندكستر الاستكشافية

لا تعـد القرائــن السلوكية في الوجــه، والجسم، والصوت، وطريقــة التحدث، علامات علــى الكـذب في حد ذاتها. فقــد تكون علامات علــى العاطفة التي تتناسب مــع ما يقال، أو قــد تكــون علامات تــدل على أن المشتبــه به يفكر بما يقولــه قبل نطقه؛ فهــي إشارات تعلم المناطــق الواجب استكشافها، وهي تعلم مكتشف الكــذب أنّ شيئاً ما يحدث، وهو في حاجة إلــى المعرفة من خلال توجيه الأسئلة والتحقق من المعلومات الأخرى، وما إلى ذلك. دعونا نبحث في مثال واحد لكيفية عمل هذه الإشارات.

فــي منتصف عام 1986م، باعــت الولايات المتحدة أسلحة لإيــران بغية إطلاق سراح الرهائــن الأمريكان المحتجزين في لبنان من قبل مجموعات توجهها إيران أو أنها متعاطفة معها. وذكرت إدارة ريغان أنها لم تكن مجرد عملية تبادل بسيطة للسلاح مقابل الرهائن، بل كانت جزءاً من محاولة إعادة تأسيس علاقات جيدة مع القيادة الإسلامية المعتدلة الناشئة حديثــاً في إيــران بعد وفاة آية الله الخمينــي. ولكن فضيحة ذات أبعــاد كبيرة برزت عندما ذُكــر أنّ بعض الأرباح التي جُنيت من بيع الأسلحة لإيران استخدمت سرّاً في انتهاك مباشر للقانــون الصــادر عن مجلس الشيوخ (تعديــلات بولاند) لشراء أسلحــة للكونترا؛ المجموعة النيكاراغويــة المتمردة الموالية للولايــات المتحدة، والتي كانت تقاتــل القيادة الساندستية الموالية للاتحاد السوفييتي في أمريكا الوسطى، وكشف الرئيس رونالد ريغان والنائب العام أدويــن ميــس في مؤتمر صحفي فــي 1986، عن تسريب الأموال للكونتــرا. وادعيا في الوقت نفسه عدم معرفتهما أيّ شيء عن ذلك، وأعلنا أنّ نائب الأدميرال جون بويندكستر مستشار

شـؤون الأمـن الوطني قد استقال، وأنّ زميله في البحرية العقيـد المقدم أوليفر نورث أُعفي مـن واجباته في مجلـس الأمن القومي. كانت تقارير الأخبار عـن فضيحة إيران – الكونترا واسعـة النطاق. أظهرت استطلاعات الـرأي آنذاك أنّ غالبية الشعـب الأمريكي لم يصدق ادعاء الرئيس ريغان أنه لم يعلم عن التسريب غير القانوني للأرباح للكونترا.

شهد المقدم نورث بعد ثمانية أشهر، أمام لجنة مجلس الشيوخ التي تحقق في العلاقات الإيرانيـة – الكونترا. فقال: إنه ناقش القضيّة برُمّتهـا في كثير من الأحيان مع وليام كيسي مديـر وكالة الاستخبـارات المركزية، وكان كيسي قد توفي قبل ثلاثة أشهر من شهادة نورث وأبلـغ نورث اللجنة أنّ كيسي حـذره أنّه سيكون كبش فداء، وأنّ علـى بويندكستر أن يشاركه ذلك الدور لحماية الرئيس ريغان.

وشهـد بويندكستر الآن، وأبلغ لجنة مجلس الشيوخ أنه وحده من أعطى الموافقة للسير بخطـة العقيد نورث لتحويل الأرباح من مبيعات الأسلحة للكونترا. وادعى أنه «مارس سلطته مـن غير إبلاغ الرئيس من أجل حمايته من «قضية سياسية عاصفة» انفجرت في وقت لاحق عليهم، وأعلن بويندكستر بنبرة واثقة: «أنا الذي اتخذت القرار[10]».

وفي مرحلة ما في الشهادة، وعند سؤاله عن الغداء الذي تناوله مع الراحل وليام كيسي مديـر وكالة المخابرات المركزية، يقول بويندكستر إنـه لا يتذكر ما قيل حينها، وما يتذكره فقـط هو تناول الشطائـر معاً. تابع عضو مجلـس الشيوخ سام نان بويندكستـر بشدة بشأن ذاكرتـه التـي خانته، وخـلال الدقيقتين التاليتين، بـدا على بويندكستـر تعبير غضب دقيق وسريـع ونبرة صوت مرتفعـة، وازدرد ريقة أربع مرات، وتوقف مرات عدّة في أثناء الحديث، وأجـرى كثيراً من التكرارات. هـذه اللحظة في شهادة بويندكستر توضـح أربع نِقاط مهمة، هي:

1. عندمـا لا تقتصـر التغيّرات السلوكية علـى طريقة واحدة (الوجـه، أو الصوت، أو تغييـرات الجهاز العصبـي اللاإرادي التي يشير إليهـا ازدراد الريق)، فمن المهم الإشـارة إلى أنّ شيئاً مهمّاً يحدث، ولا بدّ من استكشافه. في حين لا ينبغي تجاهل العلامات المقتصرة على نمط واحد من السلوك؛ إذ قد يكون هو كلّ ما لدينا، ومن

المحتمل أن يكون أكثر مصداقية، وأنّ العاطفة التي تحرك المتغيّرات أقوى عندما تتقاطع العلامات عبر الجوانب المختلفة للسلوك.

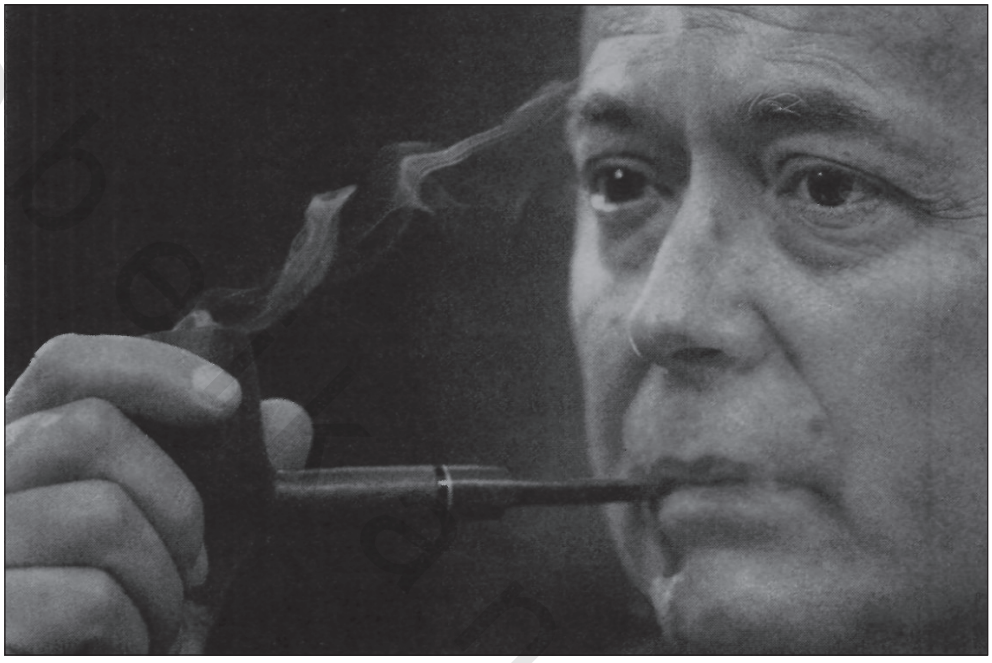

مستشار الأمن القومي الأسبق نائب الأدميرال جون بويندكستر.

2. يعدّ تفسير التغيير أقلّ مخاطرة مقارنة بتفسير بعض الملامح السلوكية التي يكرّرها الشخص. فلم يبدِ بويندكستر تردداً في الحديث ولا توقفاً، ولا ازدراد ريقه، أو ما شابه ذلك؛ لذا، ينبغي على مكتشف الكذب البحث دائماً عن التغيّرات في السلوك؛ بسبب ما أسميه مخاطرة بروكاو في الفصل الرابع (ص. 91.)، ولن تخدعنا خصوصيات شخص ما إذا اهتممنا بتغيرات السلوك.

3. عندما تحدث تغيرات السلوك المرتبطة بموضوع محدّد أو سؤال ما، فإنّ ذلك يُعلم مكتشف الكذب أنّ هذه قد تكون منطقة حساسة ينبغي استكشافها. وعلى الرغم من ضغط عضو مجلس الشيوخ نان، وأعضاء آخرين في مجلس الشيوخ، على بويندكستر في كثير من التفاصيل، فإنّه لم يبدِ هذه السلوكات إلّا بعد أن استفزّه عضو مجلس الشيوخ نان بشأن جلسة الغداء مع كيسي. اختفى نمط سلوك المشتبه به الذي أبداه بويندكستر عندما توقف نان عن السؤال عن الغداء، وانتقل

إلــى موضوع آخر. كلما بدت مجموعة من التغيرات السلوكية بالارتباط مع موضوع محــدد، ينبغي لمكتشف الكذب محاولة التأكــد أنّه فعلاً موضوع ذو علاقة، وتكمن طريقــة القيام بذلــك بترك الموضوع قيد التهمة والانتقال إلــى آخر كما فعل نان، ثــمّ وعلى غيــر المتوقع، العودة إلــى الموضوع ذي العلاقة وملاحظــة ما إذا كانت مجموعة السلوكات تعاود الظهور أم لا.

4. ينبغي أن يحاول مكتشف الكذب معرفة التفسيرات البديلة لسبب حدوث التغيرات السلوكيــة، والتفكير في تفسيرات غير احتمال أن تكون هذه علامات على الخداع. فــإذا كان بويندكستــر كاذباً فــي إجاباته عن الغداء، فربما يكــون منزعجاً للقيام بذلك. فقد عُرف عنه أنه متديّن، وزوجته شمّاسة في كنيستهم، ومن المرجح وجود بعض التناقض لديه حيال الكذب حتــى لو اعتقد أنه مشروع مــن أجل المصلحة الوطنية. وقد يكون خائفاً من أن يكتشف كذلك، ولكن هناك بدائل أخرى لا بدّ من التفكير فيها.

لقد استمرت شهادة بويندكستر أياماً عدّة. لنفترض أنّه خلال استراحة الغداء يتحادث دائمــاً مع محاميه، ويتناول شطيــرة أعدتها زوجته. ولنفترض أنّ في هذا اليوم عندما يسأل زوجتــه مــا إذا كانت قد أعدت لــه الشطيرة تصيح غاضبة، وتقول: جــون، لا أستطيع إعداد شطيرتــك يوميّاً أسبوعــاً بعد أسبوع؛ فلــدي مسؤوليات أخرى أيضــاً. وإن كان زواجهما من النــوع الــذي نادراً ما يُنفّس فيه عــن الغضب فقد يكون بويندكستر متضايقــاً لهذه الحادثة. وعندمــا يسألــه نان لاحقاً فــي ذلك الصباح عن الغــداء، ويذكر تناولهمــا الشطائر، تعاوده العواطــف التــي لم تُحلّ بشــأن الخلاف مع زوجته، وتلــك المشاعر هي ما نــراه الآن، وليس الذنــب للكذب حيــال بعض جوانب العلاقة بيــن إيران– والكونترا، أو الخــوف من انكشاف تورطه في هذه القضية. لا يوجد لدي أيّ وسيلة لمعرفة ما إذا كان هذا التخمين مستنداً إلى أسسٍ أم لا، وتلك هي النقطة التي أريد إثارتها.

المقدم السابق أوليفر نورث

ينبغـي لمكتشف الكـذب محاولة التفكيـر بالتفسيـرات البديلة غير الكـذب، وتجميع المعلومات التي يمكن أن تساعد على استبعاد التفسيرات البديلة، وما كشف عنه بويندكستر هو أنّ هناك أمراً حسّاساً بشأن الغداء مع كيسي، ولكننا لا نعلم ما هو. وعليه، يجب ألّا نقفز إلى نتيجة أنه كاذب من غير استبعاد التفسيرات الأخرى.

قدرة أوليفر نورث على الأداء

توضّـح شهادة العقيـد نورث خلال جلسـات التحقيق في قضية إيـران– كونترا نقطة أخرى نوقشت في كتاب قول الأكاذيب. يبدو نورث مثالاً جيداً لما أسميه (ممثّل بالفطرة)[11].

ولا أقصد الإشارة إلى أنّ نورث كان فعليّاً يكذب (على الرغم من إدانته في شهادته الأولى أمام مجلس الشيوخ)، ولكن لن نستطيع معرفة إن كان كاذباً من سلوكه؛ فإن اضطر إلى الكذب فسيكون مقنعاً جدّاً، وأداؤه مقنع جدّاً وقابلٌ للتصديق[12].

أظهرت استطلاعات الرأي العام آنذاك، أنّ نورث كان محطّ إعجاب الشعب الأمريكي الكبير، وهناك أسباب كبيرة تدعوه للاستئناف، وربما يُنظر إليه على أنه داود ضد جوليت؛ حكومة قوية مقابل لجنة مجلس الشيوخ. أما آخرون، فساعده ذلك الزّيّ الذي يرتديه. وربما يكون قد ظهر على أنّه كبش فداء، وتحمل المسؤولية ظلماً عن الرئيس، أو عن تصرف وكالة الاستخبارات المركزية. إحدى السمات التي تميز فناني الأداء الطبيعي هو أنّه يجب تصديقهم ونحن نستمتع بأدائهم، وليس هناك سبب للاعتقاد أنّ هؤلاء الأشخاص يكذبون أكثر من الأشخاص العاديين (على الرغم من أنهم قد يقرّون أكثر؛ لأنهم يعلمون أنهم يستطيعون الإفلات بالكذب)، ولكنهم عندما يكذبون تكون أكاذيبهم سلسة.

تثير شهادة نورث قضايا أخلاقية وسياسية حيال مشروعية الكذب من قِبَلِ المسؤول العمومي. سأناقش هذا الحدث في الفصل القادم، وأحداثاً تاريخية أخرى.

obeikandl.com